

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة المزمل من الآية (١) إلى الآية (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

قال ابن عباس والضحاك والسدي: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَمِّلُ}** [سورة المزمل:١] يعني يا أيها النائم، وقال قتادة: المزمل في ثيابه، قوله تعالى: **{نِصْفَهُ}** [سورة المزمل:٣] بدل من الليل، **{أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}** [سورة المزمل:٤-٣] أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -عز وجل- يقول: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}** [سورة المزمل:٢] ثم قال: **{نِصْفَهُ}** الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، هذه القاعدة، "تصفه" الهاء هنا هي الضمير هل يرجع إلى الليل بمعنى قم الليل ثم قال: نصفه، فيكون بدلاً من الليل، مثل ما تقول: أكلت الرغيف نصفه، يكون بدلاً من الرغيف، يعني كأنك تقول: أكلت نصف الرغيف، كما تقول: اشتريت المتعة، وبعد ذلك قلت: أجوده، يعني ما اشتريت الأشياء الأخرى، فيكون هذا بدلاً، فالآن **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو "قليلًا"، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن قوله: "تصفه" عائد إلى "قليلًا"، فهو بيان لهذا القليل المستثنى، كأنه يقول: قم الليل إلا نصفه أو أكثر من النصف، يعني ربما يصل إلى الثلثين، يصير كم قام إذا ترك الثلثين؟ قام الثالث، أو زد عليه، **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا}** إذا نقص من النصف صار كم قام؟ قام الثلثين **{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}** على النصف، فيكون قد ترك أكثر الليل، ترك لربما الثلثين لم يقمن، هذا قاله بعض أهل العلم بناء على هذه القاعدة المعروفة، وهي أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، عرفنا لماذا قالوا هذا الكلام، هذا القول مرجوح.

ونحن في هذه الدروس لا نعني بذكر الخلاف، وإنما أقصد التمرير وتربية الملكة، ومن أجل أن يتسع الصدر، قالوا هذا الكلام بناء على هذه النظرة.

الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والآخرون -وهو القول المشهور والذي نظن أنه هو الراجح- قالوا: إن المعنى **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ}** الضمير عائد إلى الليل، وقاعدة الضمير يرجع إلى أقرب مذكور؟ قالوا: هنا عندنا مستثنى ومستثنى منه.

قوله: **{إِلَّا قَلِيلًا}**، من هنا قال بعض أهل العلم: إن قوله: **{نِصْفَهُ}** يرجع إلى **{قَلِيلًا}** يعني قم الليل إلا نصفه أو زد عليه على النصف، يعني في المتروك ما تقوم به، أو نقص منه قليلاً أو زد عليه، فالحديث كله عن النصف الذي لا يقام بناء على هذا الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والقول الآخر الذي نظن أنه أرجح هو أن قوله: **{نِصْفَهُ}** عائد إلى الليل، كيف تعديننا "قليلًا" وخالفنا القاعدة؟ نقول أمامنا هنا شيئاً: عندنا

مستثنى ومستثنى منه، المستثنى "قليلًا"، والمستثنى منه "الليل"، والأصل هو المستثنى منه، فهو المحدث عنه، تقول مثلاً: اشتريت المتاع إلا مكيناً فاستحسننته، يعني استحسنست المتاع، فالمستثنى منه هو الأصل، وهو المحدث عنه؛ ولهذا الضمير يرجع إليه، "نصفه" يرجع إلى المستثنى منه الذي هو "الليل"، يتغير المعنى أو ما يتغير؟ يكون المعنى هكذا، وهو اختيار ابن كثير كما رأيتم.

عبارة ابن كثير يقول: نصفه بدل من الليل **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَه﴾** كأنه قال: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً، إذا نقص من النصف قليلاً لربما يصل إلى الثلث، يعني كأنه قال: قم نصف الليل أو ثلث الليل، أو زد عليه أي على النصف، يعني كأنه قال: قم نصف الليل أو أدنى كثلث الليل، أو أكثر كثلثي الليل، يقول له: قم النصف أو دونه أو أكثر منه، هذا هو المعنى، -والله تعالى أعلم.

وهنا يرد سؤال هل هناك فرق من جهة النتيجة؟ على هذا المعنى قم نصف الليل أو أقل أو أكثر، وعلى المعنى الثاني قم الليل إلا نصفه أو أقل أو أكثر، من حيث النتيجة النهائية هل هناك فرق؟ لا، النتيجة النهائية يكون المؤدى فيها واحداً، بمعنى أنه يقوم النصف أو أكثر أو أقل على كلا المعندين.

وهناك سؤال آخر: ألم يقل الله -عز وجل-: **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَه﴾** هل النصف يعتبر قليلاً؟ أليس القليل يقابل الكثير، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((الثلث، والثلث كثير))**^(١)، فالنصف يعدل الطرف الآخر من غير زيادة ولا نقصان، هذا الأصل، فكيف يكون قليلاً مقابل النصف الآخر؟ بعض أهل العلم نظروا فيه إلى جانب معنوي قالوا: إن النصف المعمور بالعبادة لا يقاس بالنصف المهجور، وهذا النصف الذي قامه يعتبر عظيماً كثيراً، والنصف الذي ترك القيام فيه يعتبر ضئيلاً، فالأوقات العامرة بطاعة الله -عز وجل- تعتبر عظيمة ومفخمة وكبيرة، هذا جواب ذكره بعض أهل العلم، قالوا: لا يقاس النصف المعمور بالنصف المتروك أو المهجور، فقالوا: هذا معنى القلة والكثرة، فالبركات والأجور التي تحصل لمن عمر وقته بطاعة الله -عز وجل- أو ساعة من زمانه يجعل هذه الأوقات لا تقاد بغيرها، صلى ساعة ونام ساعة، فالساعة هذه التي أقامها أعظم، هذا جواب.

الجواب الثاني: أجاب بعضهم بجواب ليس بالقوي، وهو أن نصفه لا يقابل النصف الآخر فيكون مساوياً بطبيعة الحال، وإنما يكون بمقابل المجموع، هو يقول: **﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾** ذكر الليل كاملاً **﴿إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَه﴾** أي قم نصف الليل أو زد عليه إلى الثنين وأكثر أو انقص منه قليلاً، فهذا بمقابل المجموع، ذكر الليل وذكر أكثر من النصف قالوا: يكون ذلك قليلاً بالنظر إلى مجموع الليل مع الثنين، وهذا جواب ليس فيه قوة، فيه ضعف وتلف، فالله -عز وجل- يخربه يقول له: قم نصف الليل أو أكثر من النصف، أو أقل، هذا هو المعنى، وبعض أهل العلم يقول: المراد **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَه﴾** يعني أو نصفه، يقولون: إن "نصفه" لا ترجع إلى الليل أو إلى القليل، وإنما ذلك على سبيل التخيير، فكان هنا "أو" حذفت، تقول مثلاً: احضر الفجر الظاهر العصر العشاء، يعني أو الظهر، أو العصر، أو العشاء، فيكون المعنى على هذا القول قم الليل إلا قليلاً أو

١ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، برقم (٢٧٤٤)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

نصفه، وعلى هذا ما في إشكال، **{قُمُّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}** يعني قم أكثر الليل أو نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، فأنت مخير بين هذه الأمور، وهذا خلاف الظاهر، إذاً المعنى المستقر عندنا الآن أنت مخير بين قيام أكثر الليل أو النصف أو أقل من النصف، هذا المعنى، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله تعالى: **{وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** [سورة المزمل: ٤] أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على الفهم.

{وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} اقرأه على تمهل وتنوّه حرفًا ببيانه الحروف ومراعاة الوقوف، وهذا هو الترتيل دون أن يكون هذاً فيكون هم الإنسان ختم السورة؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يفقه القرآن من قرأه بأقل من ثلات))^(٢)، لا يفقهه، لأنّه بهذه الطريقة، فهنا قال الله -عز وجل-: **{وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** قالها هنا في سياق أمره بقيام الليل، فيكون الأمر بالترتيل أعلق بالموضوع الذي سيقت من أجله وهو قضية قيام الليل وصلاة الليل، وعلى هذا فهو أمر بصلة الليل مع ترتيل القراءة فيها، ويؤخذ من عموم اللفظ **{وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** أن الترتيل مطلوب على كل الأحوال في التلاوة في الصلاة، وخارج الصلاة، وفي قراءة صلاة الليل، وفي غير صلاة الليل، تقرأ قراءة متسللة مع إيانة الحروف، ومراعاة الوقوف كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ حرفًا حرفًا، وقد ثبت عن أربعة أنّهم ختموا القرآن في ركعة في ليلة: عثمان -رضي الله عنه-، وسعيد بن جبير، وتميم الداري، وأبو حنيفة، ويوجد غير هؤلاء في أعصار أخرى، لكن هؤلاء الذين اشتهر ونقل ذلك عنهم، ومثل هذا لا يحتاج به، كان أمراً عارضاً.

وأصل الترتيل هو التضييد وتحسين الكلام.

وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه-، قالت عائشة -رضي الله عنها-: "كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها"^(٣).

تطول بسبب هذا الترتيل، قراءة الجزء عند البعض كم تستغرق؟ لربما تصل إلى ربع الساعة هذا، فالحاصل أن بعضهم لربما ختم القرآن في قعدة واحدة، يراجع فيختم في مجلس واحد، لا يقوم حتى يختم، هذا موجود عند المهرة في الحفظ، فالحاصل أنه إذا رتل فإن ذلك يطول، ومراتب القراءة معروفة من حدر وترتيل وما إلى ذلك، حيث إنه كلما كانت عنایته أكثر كلما تطلب ذلك مزيداً من الوقت.

وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: كانت مدة، ثم قرأ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" يمد باسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم^(٤)، وقال ابن جريج عن ابن أبي ملکية عن أم سلمة -رضي الله عنها- أنها سئلت عن قراءة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت:

٢ - رواه أبو داود بلفظ: ((لا يفقه من قرأه في أقل من ثلات))، كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن؟، برقم (١٣٩٠)، والترمذى، كتاب القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب في كم يُستحب يختتم القرآن، برقم (١٣٤٧)، قال الشيخ الألبانى في صحيح أبي داود (١٣٨٥)، برقم (١٢٦٠): "إسناده صحيح على شرط الشيدين".

٣ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعدًا وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً، برقم (٧٣٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، برقم (٥٠٤٦).

"كان يقطع قراءته آية آية، **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** [سورة الفاتحة: ١-٤]"^(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما جاء في الحديث: ((زینوا القرآن بأصواتكم))^(٦)، و((ليس منا من لم يتغن بالقرآن))^(٧)، و((لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود))، يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: "لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحببأ"^(٨)، وعن ابن مسعود أنه قال: "لا تثروه نثر الرمل، ولا تهزوه هذ الشعر، ففوا عند عجائبها، وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدهم آخر السورة"^(٩) رواه البيغوي، وروى البخاري عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذَا كهذَا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في كل ركعة"^(١٠).

عظمة القرآن:

وقوله تعالى: **{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}** [سورة المزمل: ٥] قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقيلاً وقت نزوله.

الآن يقول: **{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}** قال الحسن وقتادة: أي العمل به، هذا القول الثقيل على هذا المعنى -يعني العمل به- أي أنه يتضمن التكاليف الشاقة والأعباء الجسمانية التي تتطلب منك مزيداً من الجهد لأجل

٥ - رواه أبو داود، أول كتاب الحروف والقراءات، برقم (٤٠٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٦٥٨٣)، وقال محققونه: "صحيح لغيره، وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيوخين" ، والحاكم في المستدرك، برقم (٢٩١٠)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيوخين ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح على شرطهما عن أبي هريرة" ، والدارقطني في سننه، برقم (٣٧)، وقال: "إسناده صحيح وكلهم ثقات" ، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٠٠).

٦ - رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم (٤٦٨)، والنمسائي، كتاب صفة الصلاة، باب تزيين القرآن بالصوت، برقم (١٠١٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، برقم (١٣٤٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٤٩٤)، وقال محققونه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيوخين غير عبد الرحمن بن عوسجة، فقد روى له البخاري في "الأدب" وروى له أصحاب السنن، وهو ثقة، الأعمش: هو سليمان بن مهران، وطلحة: هو ابن مصرف" ، وصححه الألباني في الجامع الصحيح، برقم (٣٥٨٠).

٧ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{وَأَسْرُوا فَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْمَلُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [سورة الملك: ١٣-١٤]، برقم (٧٥٢٧).

٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٤٤٨٤)، واللفظ له، ورواه البخاري عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((يا أبا موسى، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود))، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، برقم (٥٠٤٨)، ومسلم بلفظ: ((لو رأيتك وأنا أستمع لقراءاتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود))، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣).

٩ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٨٨٤).

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الجمع بين سورتين في الركعة، برقم (٧٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهد -وهو الإفراط في السرعة- وإباحة سورتين فأكثر في ركعة، برقم (٨٢٢).

البلاغ، والعمل بما فيه، والتحمل والصبر على ما يعترض من آفات في هذا الطريق وعوارض تدعو الإنسان عادة إلى الإلحاد وترك التشمير فينقطع، فإن نظرت إلى ما سيواجهه من الطعون والتهم والأذى فإن ذلك يحتاج إلى صبر، وإذا نظرت إلى ما فيه من التكاليف الشاقة فكذلك تحتاج إلى صبر من أجل الامتثال، وكذلك هو ثقيل في وقت نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يتقصد جبينه -صلى الله عليه وسلم- عرقاً في الليلة الشاتية في اليوم الشاتي لنقله في وقت النزول، وكان -صلى الله عليه وسلم- كما في الأحاديث الواردة التي تصف نزول الوحي عليه كان يتربد لذلك وجهه، ولربما كان على الراحلة فبركت حتى تضع جرانها على الأرض من شدة النقل، ولمّا نزل عليه -صلى الله عليه وسلم- وركبته على فخذ زيد رضي الله عنه يقول زيد: كادت فخذي أن تُرضَّ، فهو قول ثقيل في وقت النزول يجد النبي -صلى الله عليه وسلم- مشقة كما في حديث الحارث بن هشام لما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الوحي كيف يأتيه، وهو قول ثقيل من حيث إن له تبعات ويتضمن تكاليف، ومن جاء به سيلقى أذى من الناس، فيحتاج إلى مزيد من الصبر، هذا هو المعنى الذي دلت عليه هذه الآية، وأقاويل السلف تدور في الغالب حول هذه المعاني التي ذكرتها، فأجملتها ولخصتها فيما سمعتم ولا منافاة، إلا أن بعضهم قال: إن القول الثقيل بمعنى الكريم، يقول: فلان تقلان عليّ، تقلان على نفسي أي كريم، لكن هذا ليس بالظاهر المتبادر، والقرآن لا يجوز حمله على غير ظاهره المتبادر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، فهذا فيه تكليف، ثقيل بمعنى كريم هذا فيه إشكال. وبعضهم يقول: ثقيل على ظاهره لكنه ثقيل على المنافقين والكافرين لما فيه من تبكيتهم، وفضحهم، وبيان دخائل نفوسهم، وتهديدهم ووعيدهم، فهو يتضمن هذه الأمور فهو ثقيل عليهم، وهذا لا ينافي القول أو الأقاويل التي ذكرها أكثر السلف، فهو ثقيل بهذا الاعتبار على المنافقين، والكافرين، وكذلك أيضاً بعضهم يقول: **لسْتُقِيلُ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ثقيل بمعنى رزين، يقول: فلان ثقيل بمعنى رزين ليس فيه خفة، من الرزانة، وهذا فيه بُعد، والعلم عند الله -عز وجل-، وبعضهم يقول غير هذا.

إذاً ثقيل هنا يقول: أي العمل به، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، هل بين القولين منافاة؟
 الجواب: لا يحتاج ترجيحاً، مما قولان مختلفان، هل هذا اختلاف تنويع أو اختلاف تضاد؟ اختلاف تنويع إذا نظرنا إلى ما يئول إليه، وهو يمكن فيه أن نجمع الأقوال لكنه في حقيقته اختلاف تضاد؛ فإن تفسيره بأنه ثقيل وقت النزول غير تفسيره بأنه ثقيل لما فيه من التكاليف الشاقة، أو أنه ثقيل بالنظر إلى المنافقين والكافرين، فهذا من الخلاف الحقيقى، اختلاف التضاد الذى يمكن أن نجمع الأقوال فيه دون أن نحتاج إلى الترجيح.
 قال زيد بن ثابت -رضي الله عنه-: "أنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفذه على فخذي فكادت تُرضَّ فخذي"، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله، هل تُحس بالوحي؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظنت أن نفسي تقبض))^(١)، تفرد به أحمد.

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٧٠٧١)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (٨٥٧).

يعني هو صوت مثل صوت السلسلة، أو صوت متدارك لا يتبيّنه، يعني هذا في أول الأمر ثم بعد ذلك قال: ثم يفصّم عنِي فأعُي ما قال، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام.

وهذا لا شك أنه داخل في معنى قوله: "تقيلًا" أي وقت نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم.

وفي أول صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها -أن الحارث بن هشام سأله رسول الله -صلى الله عليه وسلم -كيف يأتيك الوحي؟ فقال: ((أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ)) -فيفصل عنِي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعُي ما يقول)).^(١٢)

هذا سهل ما يشق على النبي -صلى الله عليه وسلم -إذا جاءه بصورة رجل، لكن حينما يأتيه بمثل هذه الصورة فيسمع صلصلة، ولربما الناس حوله، وهذا يجمع الناس حوله يسمعون دويًا كدوبي النحل.

قالت عائشة: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي -صلى الله عليه وسلم -في اليوم الشديد البرد فيفصل عنِه وإن جبينه ليتفصد عرقاً"^(١٣) هذا لفظه، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها -قالت: "إنْ كان ليوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -وهو على راحلته فتضرب بجرانها"^(١٤)، والجران هو باطن العنق، واختار ابن جريج أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيمة في الموازين.

"قولاً تقيلًا" يعني يثقل، كما أنه لم ينكر أنه ثقيل في الدنيا بهذا الاعتبار، كما أنه كذلك أيضًا ثقيل في الميزان، من قرأ حرفاً، لا أقول: ألف لام ميم حرفاً، ويقال لصاحب القرآن يوم القيمة: اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها^(١٥)، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم -: ((الماهر بالقرآن مع السفرة))^(١٦)، وفي زيادة صحيحة ثابتة: "الماهر بالقرآن وهو يحفظه -أو وهو حافظ له- مع السفرة الكرام البررة".

شرف قيام الليل:

وقوله تعالى: {إِنَّ نَاسَيْنَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [سورة المزمول: ٦]، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير: الليل كله ناشئة، وكذا قال مجاهد.

{إِنَّا سَنُنْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقَيلًا} عامة ما ذكره السلف يمكن أن يجمع في تفسير هذه الآية.

١٢ - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي -صلى الله عليه وسلم -في البرد وحين يأتيه الوحي، برقم (٢٣٣٣).

١٣ - رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب جامع ما جاء في القرآن، برقم (٩٣٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٦١٩٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيختين"، وهو في صحيح الجامع، برقم (٢١٤).

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٤٨٦٨)، وقال محققوه: "حديث صحيح وهذا سند حسن".

١٥ - رواه الترمذى، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، برقم (٢٩١٤)، وأحمد في المسند، برقم (٦٧٩٩)، وقال محققوه: "صحيح لغيره" وهذا إسناد حسن من أجل عاصم وهو ابن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيختين، عبد الرحمن: هو ابن مهدي، وسفيان: هو الثوري، وزر: هو ابن حبيش، وصححه الألبانى في صحيح الجامع، برقم (٨١٢٢).

١٦ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعظ فيه، برقم (٧٩٨).

وكان الليل كله ناشئة؛ لأنَّه ينشأ بعد النهار، ففي أي ساعة صلبت على هذا القول سواء كان ذلك بعد نوم أو لم يسبق بنوم صلبت العشاء وقامت تصلي فهذا من ناشئة الليل، كل ساعات الليل ناشئة.

يقال: نشاً إذا قام من الليل، وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء.

الآن نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء، ما الفرق بين هذه الأقوال الثلاثة الآن إذا تأملت الأقوال -كل ما قيل فيها-؟ أرجعها إلى أصول فماذا تقول؟ نقول: إما أن يفسر ذلك بالفعل، أو يفسر بالزمان، أو يفسر بالذات، ابحث ما شئت في الأقوال في المطولات، إما أن يفسر بالزمان، وإما أن يفسر بالفعل، وإنما أن يفسر بالذات، فانظروا هذه الأقوال الآن لما يقول: الليل كله ناشئة فسره بالزمان، ناشئة الليل أي الساعات التي تنشأ شيئاً بعد شيء فهي آناته وأوقاته ودقائقه وأبعاضه وأجزاءه، فهذا تفسير اللفظ بالزمان، ناشئة الليل تنشأ ساعته شيئاً بعد شيء، فمن أوله إلى آخره، ومن قال: بين المغرب والعشاء باعتبار أن الليل يبدأ المغرب لكن لا صلاة ليل ولا قيام بعد المغرب، لكن هؤلاء لهم ملحوظ آخر **{إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}**، ومن قال: بعد العشاء لاحظ أول الليل مع وقت القيام الذي يكون من بعد العشاء، فقال: بعد العشاء، أعاده إلى تفسيره بالزمان واعتبر أن الناشئة هي ما ينشأ أولاً، فناشئة الليل هي ابتداؤه، هي أول وقت الليل، ومنه النشأة يعني الابتداء، فلماذا فسروه بما بعد العشاء، وما قالوا: المغرب؟ قالوا: لأن المغرب ليس محل صلاة الليل فنقول: بعد العشاء؛ لأن القضية تتعلق بالقيام، هذا كله تفسير له بالزمان، **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}** انظر الأقوال الأخرى: الليل كله ناشئة، نشأ إذا قام من الليل، هذا تفسير بالفعل، فيكون **{نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}** أي: قيام الليل بالفعل، وهؤلاء منهم من جعله القيام بعد النوم قالوا: لا يكون ناشئة إلا إذا كان القيام بعد نوم، فهم فسروه بالفعل، لكن هذا الكلام لا دليل عليه، أي أنه لا يشترط أن يكون بعد نوم، أو قالوا: هو القيام، ومن فسره بالذات قال: إن ناشئة الليل هي النفس التي تقوم وتصلّي في الليل، فسره بالذات الإنسان العبد المصلي، ناشئة يعني النفس التي تقوم تصلي، لاحظت كيف نرجع الأقوال إلى أصولها لنفرع عليها بعد ذلك، وننظر الأقوال التي يمكن أن تجتمع فنجمعها، والأقوال التي الخلاف بينها صوري لفظي فهذه لا تعتبرها أصلاً من الخلاف، بعد ذلك خرج بنتيجة.

إِنَّ نَاسِئَةَ اللَّيْلِ وأحسن ما يفسر به -والله تعالى أعلم- أن ناشئة الليل هي ساعاته، وأوقاته في أوله ووسطه وآخره، فهي تنشأ شيئاً بعد شيء، ساعة بعد ساعة حتى ينقضي، هذه ناشئة الليل، ومن فسره بالنفس قوله ليس بعيداً، فالسلف يفسرون تارة بالمطابق، وتارة باللازم، وتارة بالتضمن، وتارة بالإشارة، يستعملون جميع أنواع الدلالة، فمن قال: إن ناشئة الليل هي النفس التي تقوم وتصلي، أو فسره بالفعل فحينما نقول: إن ناشئة الليل هي ساعاته، والقضية المحدث عنها هي القيام، لابد فيه من قائم، وهذا القيام عبارة عن فعل، في يتسع الصدر، فلا نحتاج أن نقول: هذا قول بعيد، وقول شاذ، وقول مطرح لا يلتفت إليه، لا نحتاج هذا الكلام، نتعامل مع هذه الأقوال بهذه الطريقة، أما أن تُسرد الأقوال: القول الأول، والقول الثاني، والقول الثالث في المسألة وهكذا ليس درساً في التفسير، هذا نوع من العبث، أما درس التفسير فهو الذي تختبر فيه الأقوال، وتتضرر، ويُجمع النظير مع النظير، ثم بعد ذلك يُنظر في الخلاف بينها، وكيف نستطيع أن نختار

القول الراجح منها، ولماذا قال الآخرون بغيره، وهل يعارض هذا القول؟ التفسير باللازم لا يعارض التفسير بالمطابق، لا يعارض، فهذا كله لا إشكال فيه.

لا شك أن هذا فيه بطء لكن هذه طريقة في التفسير أرى أنها لابد أن تزرع في النفوس، لابد أن تزرع، وأن يرى الناس طريقة بالتفسير غير الطريقة المعهودة التي يدرسونها في الجامعات وفي المساجد؛ لأن هذه الطريقة هي التي تربى الملكة، ويتسع الصدر، ويستطيع الإنسان أن يتذوق التفسير، وأن التفسير له معنى، وليس كحاطب ليل.

وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنذر، والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات.

إذن من قالوا: إن الليل كله ناشئة قالوا: لأنه ينشأ بعد النهار، والذين قالوا: بعد العشاء قالوا: لأن الناشئة بمعنى الابداء فهو أول الليل ومبتدئه، أوله بعد المغرب قالوا: المغرب ليس وقت صلاة، ولا وقت قيام، والكلام هنا في القيام فأوله بعد العشاء الذي ينشأ منه الليل.
والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان.

الآن **{إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قياماً}** أمره بقيام الليل وترتيب القرآن ثم علل ذلك؛ لأن "إن" هنا تدل على التوكيد، وتشعر بالتعليل؛ أي لأن ناشئة الليل فيها مزيتان: **{هي أشد وطناً وأقوم قياماً}**.

والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: **{هي أشد وطناً وأقوم قياماً}** أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولنط الأصوات، وأوقات المعاش.

{هي أشد وطناً وأقوم قياماً} قال: أي أشد مواطأة -يعني موافقة- بين القلب واللسان، هذه الآية فيها قراءتان متواترتان: الأولى: "هي أشد وطناً"، والثانية: {هي أشد وطناً} بكسر الواو وتسكين الطاء، وكلاهما قراءة متواترة، وهذا التفسير الذي ذكره ابن كثير هنا يصلح على القراءة الثانية التي هي "وطناً"，تقول: واطأة مواطأة ووطناً بمعنى وافقه موافقة، فعلى هذه القراءة {هي أشد وطناً} يعني أشد مواطأة بين القلب واللسان والسمع والبصر، وذلك أن الليل محل السكون، وهدوء الأصوات، وقلة انتشار الناس، هدأة الليل، ففي هذا السكون يرتفع التشويش والإزعاج، فإذا قرأ الإنسان قرأ القراءة يجتمع له فيها القلب مع اللسان مع السمع والبصر، ليس هناك مشوشات تشوش على البصر، ولا أصوات مزعجة، هذا إذا كان الناس ينامون بالليل، فالليل هو وقت الهدوء فيحصل فيه مثل هذا المعنى، فتكون القراءة مؤثرة يخشى فيها الإنسان وينتفع ويلين قلبه، ويكون قريباً من الله -عز وجل-، {هي أشد وطناً} وفي القراءة الأخرى "وطناً" **((اللهم اشدد وطأتك على مصر، اللهم اجعلها عليهم سنين كستني يوسف))**^(١٧)، ومعنى "أشد وطناً" أي أشد ثقلًا على هذه القراءة، ويكون المعنى: أشد وطناً أي أن صلاة الليل تتطلب مزيداً من المجاهدة والمكافحة والصبر؛ لأنه وقت للراحة

١٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الفنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بال المسلمين نازلة، برقم .٦٧٥

والإِخْلَادُ وَالنُّوْمُ، فَلَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَقُومَ فِيهِ إِلَّا الْمُوْفَقُ الَّذِي أَعْنَاهُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَى نَفْسِهِ فَجَاهَهَا حَتَّى ارْتَاضَتْ لَهُ وَاسْتَقَامَتْ، وَإِلَّا فَعَامَةُ النَّاسِ مَأْسُورٌ، تَأْسِرُهُ ذُنُوبُهُ، وَتَأْسِرُهُ شَهْوَاتُهُ فَيَخُلُدُ إِلَى النُّوْمِ، وَلَا يُسْتَطِعُ الْقِيَامَ.

ما يَقُومُ اللَّيلَ إِلَّا * * * مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجْدٌ

فهي ثقيلة إلا بلون من المواجهات ترتاح فيها النفس وتصبر، فليست سهلة على كل أحد، وهذا معنى صحيح، والقاعدة في هذا الباب أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فكأن عندنا آية تدل على أن صلاة الليل تكون فيها الموافقة بين اللسان والقلب والجوارح، وعندنا آية ثانية تدل على أن صلاة الليل ثقيلة على الإنسان؛ لأن الليل وقت النوم والراحة، فهما قراءتان، كل قراءة أفادتنا معنى جديداً، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{أَشَدُّ وَطَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا}، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا}: أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وفهمها.. أقوم قيلًا: القيل هو القول، **{وَقِيلَهُ يَارَبُّ}** [سورة الزخرف: ٨٨] يعني قوله، تقول: وفي قيل ابن جريج، وفي قيل بعض أهل العلم يعني وفي قول بعض أهل العلم، هذا معناه.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا}: أي أقوم قوله، وذلك يعني أن القراءة في وقت هدأة الأصوات والسكون تكون أكثر استقامة حيث لا مشوش ولا مزعج يفسد عليه قراءته فيخطئ، وينسى، ويدخل سورة في سورة، ويختتم آية بغير خاتمتها.

{وَأَقْوَمُ قِيلًا} أي أسد وأصوب، أقوم أي أكثر استقامة فيؤدي القراءة على وجهها؛ لأنه يقرأ وهو قد تخلص من سائر المشوشات والمزعجات والمشغلات، إذا "هي أشد وطنا" أي موطة وموافقة بين القلب واللسان والجوارح، أو ثقيلة، وهي كذلك يذكر فيها هذا وهذا، وأسد وأصوب؛ لعدم وجود المشوشات، هذا معنى "أقوم قيلًا".